قدم القطن بوادي النيل

للدكتور حسن كمال

معلوم ان القطن هو اهم المحاصيل الزراعية في القطر المصري، والفضل في انتشار زراعته بالشكل الحالي يرجع الى والي مصر المغفور لهُ محمد علي باشا مؤسس الاسرة الملكية، اما مسألة قدمه في وادي النيل فلا تزال عقدة العقد: وقد نشرت مجلة العاديات المصرية اخيراً (مجلد ٢ ص ٥) مقالاً للمرحوم الاستاذ جريفث والمستر ج. م. كروفوت لخصا فيه الحقائق المتعلقة بتاريخ القطن القديم بوادي النيل وشفعا ذلك بنتائج المباحث الحديثة في المنسوجات القديمة التي كشفت في ذلك الوادي. ولما كان هذا الموضوع العلمي الخطير مما يهم مصر رأيت ان أُلخصهُ فيما يلي: —

اخبرنا هيرودوتوس ان ملابس قدماء المصريين كانت تصنع من الكتان الابيض. وهي حقيقة واضحة في رسوم هؤلاء القوم. اما الأغطية (كالشيلان والبطانيات) فكانت تصنع من الصوف الابيض. واعتاد القوم عدم ادخال الانسجة الصوفية في المعابد او استعمالها في الدفن. واول من ذكر اسم القطن مستعملاً بين كهنة مصر القديمة هو بلنيوس (جزء ١٨) حيث ذكرهُ باسم gossipiou ثم قال: ان هذا النبات وقتئذٍ (القرن الاول ب. م.) كان يزرع في الصعيد بالقرب من بلاد العرب. اما هيرودوتوس (ج ٣ — ٤٧) (في القرن الخامس ق. م.) فقد ذكر ان الملك أمازيس الذي توفي عام ٥٢٥ ق. م. اهدى لباسين مصنوعين من الكتان، والقطن الى (ساموس) و (ليندوس). وبالرغم من هذا كله فان الاثريين لم يتمكنوا قط من العثور على أقمشة قطنية فرعونية حتى العصور الاخيرة. ويقول البعض ان اللغة القبطية لا تحوي الفاظاً ثابتة لهذا النبات ولا لمصنوعاته. وفي السنين الاخيرة اكتشف الاستاذ ريزنر في جهة مروة بالسودان بعض منسوجات (يرجع تاريخها الى العهد المروي ويقابله العهد الروماني بمصر) فحصها بعض الخبراء وقرروا أنها مصنوعة من القطن. وهذا الاكتشاف شجّع الاستاذ جريفث ان يبحث في المادة المصنوعة منها بعض المنسوجات التي عثر عليها في جهة كارانوج (بالقرب من أبريم) وحفظت طائفة كبيرة منها بجامعة بنسلفانيا بفلادلفيا. ولما عُيّن المستر جان الذي كان امين المتحف بالقاهرة مديراً لمتحف بنسلفانيا المذكور ارسل بعض القطع من هذه المنسوجات القديمة (التي عثر فيها سابقاً على خيوط القطن) الى معهد القطن المسمى باسم شيرلي Shirley بالقرب من مانشستر حيث قام بفحصها الدكتور ترنر Turner وكان قد سبق لهُ فحص المنسوجات الهندية القديمة. وفي ٥ ابريل عام ١٩٣٣ اثبت هذا المعهد ان هذه المنسوجات مصنوعة من القطن البري كالمعروف باسم Gossipium arboreum Soudanensis. ثم ارسل المعهد المذكور بعد ذلك خطاباً بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩٣٣ الى المستر جان قال له فيه ان النماذج المذكورة فحصت جميعها بالمكروسكوب وقيست اقطار خيوطها

والسير (جورج وط) صاحب الفضل في تقسيم شجيرات القطن الى عدة انواع (راجع مباحثهُ في سنة ١٩٠٧ و١٩٢٦ و١٩٢٧) وفي اظهار الفروق العديدة والدقيقة بين كل نوع وآخر مما يشهد لهُ بالصبر

والعلم والكفاءة. ولا يغيب عن البال ان تجارة البحر الاحمر كانت راقية في العهد الروماني وان القطن لا يبعد ان يكون قد وصل وادي النيل من الهند عن هذا الطريق. لكن المباحث والمكتشفات الحديثة تشير بما يقرب من التأكيد الى وجود نوع من القطن سوداني الموطن كان يستعمل للنسيج في مصر والنوبة

وهناك دليلان آخران على وجود القطن ومكانته في النوبة في الازمنة الغابرة. الاول خاص بالغارة التي شنها اهالي اكسوم على مروة وابادوا فيها سلطة الاخيرة فقد جاء فيها ان الجيش المنتصر اتلف تماثيل معبودات مروة ومخازنهم القمحية والقطنية والقى بها في النهر. وا كسوم في الحبشة. والقطن هناك لا يزال يطلق عليه اسم (دود) وهذا اللفظ بعينه هو الوارد في القصة التاريخية القديمة السالفة الذكر التي يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٠ ب.م. اما الدليل التاريخي الثاني فخاص باغارة شمس الدولة أخي صلاح الدين الايوبي على قلعة ابرم عام ١١٧٣ ب. م. في عهد حكومة الغز والترك. وقد اسر كثيرين من النوبيين وقتئذٍ ووجد هناك مقداراً من القطن اخذه معهُ الى قوص (ابو صالح)

وهنا يحق لنا ان نسأل عن السبب في وجود القطن المذكور بتلك الحصون. هل كان هناك بقصد غزله ونسجه او لاستعماله في اعمال الوقاية او انهُ كان ضمن المواد التي استولى عليها جنود تلك الحصون اثناء اغارتهم على بلاد النوبة المجاورة؟ وفي عام ١٩١١ ظنَّ المستر (كروفرت) ان من اسباب ثروة مملكة مروة تجارتها في القطن وفي عام ١٩٢٢ — ٢٣ قام الاستاذ ريزنر بحفائر في الجبانة الغربية لمروة وهناك وجد في القبور المتأخرة من العهد الروماني (٣٠٠ ق.م — ٣٠٠ ب.م) شيئاً عظيم القدر عند الباحثين والمدققين في تقدم السودان الحديث ألا وهو كثرة استعمال القطن وقتئذٍ في منسوجات الاهالي» (راجع تقرير الدكتور ريزنر). وقد قامت المستر (كروفوت) بمباحث دقيقة في نسيج هذه المنسوجات وذلك لخبرتها الكبيرة بمصنوعات تلك الجهات. فقالت ما ترجمتهُ «زرت انا وزوجي حفائر تلك السنة بالسودان ورأينا المنسوجات المذكورة فوجدناها سوداء اللون متفحمة وهشَّة للغاية. فتبادر للذهن فحصها بالميكرسكوب وارسلت لذلك نموذجاً الى مدينة الخرطوم. وهناك قام بفحصها المستر (ماسي) في مزرعة المباحث الواقعة في شمباط ووجدها مصنوعة من القطن. واستنتج من مباحثه ان القطن المذكور هو من النوع الذي ينمو في البلاد الحارة ذات الطقس الجاف مما يشير الى زراعته في السودان — لكن هذا لا يمنع امكان زراعته في مثل هذه البقاع في الهند والقطن المستعمل في السودان هو من النوع البري او تحت البري الذي يشبه في خواصه القطن الاسيوي اكثر من القطن الاميركي. وعلى ذلك فالقطن الذي نسجت منه المنسوجات المروية المذكورة يكون قد زرع اما في النوبة او استورد من الهند. والمنسوجات المذكورة بعضها املس والبعض الآخر جريز (كالقوط والبشاكير) وهذه الاخيرة تملأ اطرافها «بالشراريب» كما هي العادة الآن. وعلى ذلك وصف مطول لكيفية نسج هذه المنسوجات وتعداد خيوطها في السنتمتر المربع وطريقة جعل الوبر فيها، مما يهم اصحاب الغزل والنسج. والرأي الراجح للآن ان القطن المذكور انما زرع ونسج في السودان (مروة) وانهُ لم يستحضر من الهند